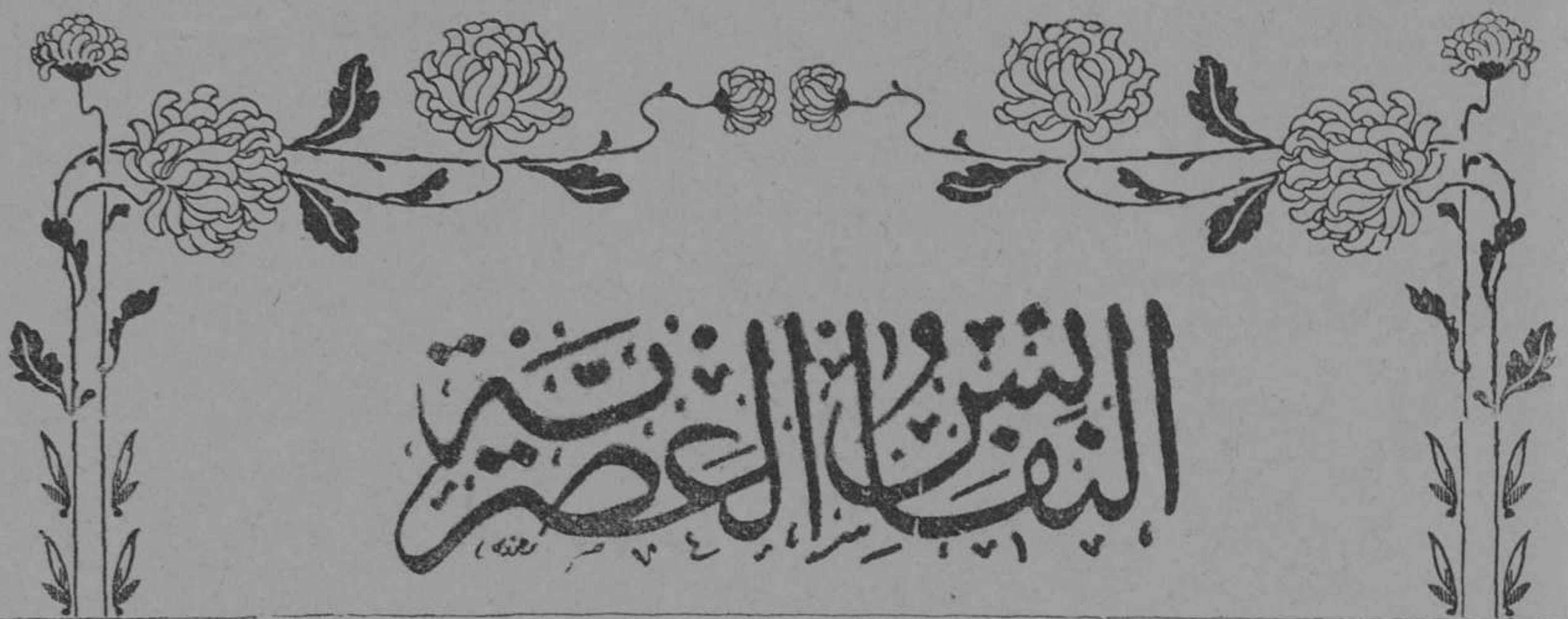


الجزء الحادي عشر | تشرين الثاني سنة ١٩١١ | السنة الثالثة

كلمات في المحبة

لتولستوي

ان بعض العلماء والفلاسفة ينكرون الحياة ولكنهم يظلّون فيها ولا يسعون الى الخروج منها . مع ان جمهوراً من الناس الذين لا يرون في الحياة الا الشرّ يرون لانفسهم مخرجاً منها بالانتحار . هكذا كان الناس يتصورون الحياة قبل سليمان وقبل بوذا . والى مثل هذه النتيجة يريد المعلمون الكذبة ان يعودوا بالانسانية في هذا العصر

ولكن النور يضيء في الظلمة . والظلمة لا تستطيع ان تستولي عليه الحقيقة تعرف هذا البرهان وقد اوضحته منذ زمان

وتعليم الحقيقة قد أوضح للبشر بطلان سعادتهم الكاذبة التي كانوا يلتمسونها لارضاء ملاذّهم البهيمية وهداهم الى أحسن سُبل السعادة الحقيقية المُدرَكة

وليست هذه السعادة نتيجة سعي وتأمل ولا هي مما يجب ان يُبحَث عنه . بل هي ما تنجذب اليه كل نفس بشرية بدون واسطة

كل الناس منذ حداثتهم يعرفون ان في الحياة سعادة فضلى وهي غير السعادة البهيمية الذاتية وليس لها علاقة بارضآء الاهوآء البهيمية . وانما هي تكون قوية وقريبة كلما ابتعدت عن السعادة البهيمية الذاتية

وهذه العاطفة — التي توضح كل مناقضات الحياة البشرية والتي تمنح الانسان سعادةً ونعيماً — يعرفها جميع الناس . هذه العاطفة هي المحبة

ان الحيـاة هي عمل الذات البهيمية الخـاضعة لناموس الادراك . والادراك هو الناموس الذي تخضع له الذات البهيمية في كل انسان حباً لسعادتها الخاصة . والمحبة هي العمل العقلي الانساني الوحيد

الذات البهيمية تسعى الى السعادة . والادراك يبيّن للانسان خداع السعادة الذاتية ويترك له سبيلاً واحداً . والعمل في هذا السبيل هو المحبة

الذات البهيمية في الانســان تلتمس السعادة . والادراك يوضح للانسان ان لا سعادة لذاتهِ البهيمية ويبيّن له ان السعــادة الوحيدة التي يمكنه بلوغها انما هي حيث لا خصام بين الكائنات ولا إبطال سعادة الغير ولا شعور بالخوف والموت

اذا ادرك الانسان ذلك شعر في نفسهِ بعاطفة تحبوه السعادة وتحلّ له رموز الحياة و تناقُضها

الذات البهيمية في كل انسان تسعى لامتلاك ما يخص كل ذات اخرى . اما عاطفة الحب فتحمل الانسان على تضحية نفسه و كل ما لديه

لمنفعة الآخرين

الذات البهيمية تتألم . وفي هذه الآلام وفي تسكينها ينحصر عمل المحبة . عندما تسعى الذات البهيمية الى السعادة تسعى في الوقت نفسه الى اعظم الشرور والى الموت. اما عاطفة الحب فتلاشي هذا الخوف وتقود الانسان الى اكبر تضحية في سبيل خير الغير

كل انسان يعرف ان في عاطفة الحب خاصيّةً لايضاح كل تناقض في الحياة . وهذه الخاصية تمنح الانسان السعادة الكاملة التي تتوق اليها حياته

والناس الذين لا يفهمون معنى الحياة لا يمكنهم ان يفهموا معنى المحبة

المحبة هي ان تعمل خيراً . مثال ذلك : اني أُحبُّ ابني وزوجتي ووطني اي اني أريد الخير لابني ولزوجتي ولوطني اكثر مما اريده لغير ابني من الاولاد ولغير زوجتي من النسآء ولغير وطني من الاوطان . ولا يمكني ان احبّ فقط ابني وزوجتي ووطني بدون ان احب غيرهم من البشر والبلاد

ولسائل ان يسأل : كيف يجب ان تكون هذه المحبة ؟ اذا أحببتُ زوجتي واولادي فلمن يجب ان اعمل خيراً اكثر أللزوجة ام للاولاد ؟ وكيف يمكنني ان احب وطني واخدمه بدون نقض محبتي لزوجتي او لاولادي او لاحد اصدقائي ؟

والجواب على ذلك هو ان الناس لو كانوا آلهةً لأمكنهم ان يختصوا بمحبتهم اشخاصاً مُختارين . وعندئذٍ فقط يمكن التفاضل بين محبة فريق ومحبة

فريق آخر . غير ان الناس ليسوا آلهة وهم انما يعيشون بعضهم من بعض وطالما كان موت الواحد سبباً لحياة الآخر وطالما كان شقآء الانسان سبباً لسعادة اخيه الانسان

وفي تنازع البقآء هذا انما تنحصر حياة العالم . وعليه فليس للانسان ان يحب افراداً مختارين كما يتصوّر ذلك الذين لا يفهمون معنى الحياة

كل انسان يحب امه وزوجتهُ وابنه واصدقاءه ووطنه وبالتالي كل الناس . غير ان المقصود من هذا الحب محض الخير . ومن هنا ينتج تفاوت درجاته بين القوة والضعف

الان جاءني شيخ جائع وهو من الذين أُحبُّهم قليلاً . وقد طاب مني طعاماً كنتُ اذخره لعشآء اولادي . فماذا يجب ان يكون عملي بين مطالب هذه المحبة القليلة ومطالب محبتي لاولادي وهي اكثر قوةً ؟

كيف يمكنني ان أختط لنفسي طريق المحبة الفضلى — للناس ام للوطن ؟ للوطن ام لاصدقائي ؟ لاصدقائي ام لزوجتي ؟ لزوجتي ام لابي ؟ لابي ام لاولادي ؟ لاولادي ام لنفسي ؟

تلك هي مطالب المحبة كما يفهمها الكثيرون . ولا مرآء في انها متعلقة ببعضها بحيث اذا اختصصتُ بمحبتي احداً احرم الآخرين منها . واذا رأيتُ ولداً عارياً يكاد يموت من شدة البرد ولم أُلبسهُ ثوباً لان هذا الثوب سأحتاج اليه لإكسآء ابني ففي امكاني حينئذٍ ان لا استسلم للمطالب الاخرى من المحبة وهي ما يلزمني لاولادي الآخرين

مثل ذلك يقال ايضاً فيما يتعلق بمحبة الاوطان والبشر عموماً

اذا رفض انسان مطالب محبة قليلة في الوقت الحاضر قياماً بمطالب محبة اعظم للمستقبل فلا يمكنه حينئذٍ ان يقوم بالواجب نحو اصغر مطلب من مطالب المحبة سوآء كان ذلك الان او في المستقبل وهو انما يجري ذلك خدمةً لذاته وليس للمحبة . ويكون هذا الرجل على هذه الصورة اما خادعاً لنفسه او للآخرين لانه في الحقيقة لا يحب الاَّ نفسه

المحبة لا تكون للمستقبل بل انما هي عمل الحاضر . والذي لا يستطيع ان يحب الان لا يحب ابداً

لو كان الناس حيوانات لا عقل لهم ولا ادراك لعاشوا على هذه الارض كالحيوانات بدون اقل تأمل في الحياة . هكذا المحبة . فلو كان الناس حيوانات لأحبوا اولادهم وقطيعهم فقط ولم يهمهم اولاد غيرهم او قطعان غيرهم

اما الناس ذوو العقل والادراك فيفهمون ان غيرهم ايضاً يحبون اولادهم وذويهم كما يحبون هم اولادهم وذويهم ولا بُدَّ لمظاهر محبة كل فريق من الاحتكاك والاصطدام — وهما لا يُنتجان الاَّ الضرر

اذا استخدم البشر ادراكهم لمثل هذه المحبة الذاتية فكأنهم يستخدمون هذا الادراك لاجرآء اعظم الشرور

الناس الذين لا يفهمون معنى الحياة يفضلون الخيرات الذاتية ويسمون ذلك محبةً

الانسان الذي لا يفهم معنى الحياة ويقول انهُ يحب زوجتهُ وابنهُ او صديقه انما يقول ذلك لان وجود زوجته او ابنه بازائه يوءول الى

زيادة سعادته الذاتية

بعض الناس يوءثرون اولادهم على كل شيء . وآخرون يوءثرون العلوم والفنون . وغيرهم غيرَ ذلك. وجميعهم يسمون كل ذلك محبةً مع ان للمحبة علامات خاصة وهي العمل المتضمن خيراً . واما هذه العواطف فاشبه بشجرة برية يمكن ان تُلقَّح بالمحبة الحقيقية . ولما كانت هذه الشجرة البرية هي غير شجرة التفاح ولا تعطي ثمراً او تعطي ثمراً مرًّا بدل الحلو — هكذا الاميال والعواطف فهي ليست حبّاً لانها لا تعمل خيراً للناس ولعلها تجرّ شراً عظيماً بدل الخير المطلوب (التتمة في الجزء القادم)

مدن العالم الكبرى

(تابع لما قبل)

سنسناتي (اميركا الشمالية)	٣٧٦٠٠٠	تورين (ايطاليا)	٣٣٦٠٠٠
بريستول (انكلترا)	٣٧٢٠٠٠	سان باولو (البرازيل)	٣٣٢٠٠٠
دُبلين (ارلندة)	٣٧١٠٠٠	الاسكندرية (مصر)	٣٣٢٠٠٠
فرنكفورت (المانيا)	٣٦٩٠٠٠	سانتياغو (شيلي)	٣٣٠٠٠٠
لسبون (البرتوغال)	٣٥٦٠٠٠	ميلفوكي (اميركا الشمالية)	٣٢٨٠٠٠
سان فرنسيسكو (اميركا الشمالية)	٣٥٦٠٠٠	يوكوهاما (اليابان)	٣٢٦٠٠٠
ادنبورج (شوتلاندا)	٣٥٦٠٠٠	انتفربين (بلجكا)	٣٢٤٠٠٠
خانجو (الصين)	٣٥٠٠٠٠	نيو اورليان (اميركا الشمالية)	٣٢٣٠٠٠
بلفَست (ارلندة)	٣٤٩٠٠٠	كيَف (روسيا)	٣٢١٠٠٠
ديترويا (اميركا الشمالية)	٣٤٩٠٠٠	نيورنبرغ (المانيا)	٣١٨٠٠٠
دوسّلدورف (المانيا)	٣٤٨٠٠٠	واشنطون (اميركا الشمالية)	٣١٧٠٠٠
ستوكهولم (اسوج)	٣٤٠٠٠٠	وست غام (انكلترا)	٣١٥٠٠٠

تقلُّبات القدر

تبتدئ حوادث هذه الرواية الواقعية عند ختام الحرب السبعينية الهائلة التي دارت رحاها بين فرنسا وبروسيا . وقد كان نصيب فرنسا منها الانخذال والانكسار وسقوط الامبراطورية الثانية ووقوع نابليون في الاسر وتهريب ولي عهده الصغير بزي الفلاحين الى ما وراء الحدود ومن هناك الى احد الملاجئ في انكلترا

حدث ذلك منذ احدى واربعين سنة وكان الامبراطور نابليون الثالث في مقدمة جيوشه في ساحة الحرب وزوجتهُ الامبراطورة اوجيني نائبة عنه في تدبير شؤون فرنسا وقد تحققت ان لسلطتها او بالحري لحياتها علاقة كبرى بنتيجة هذه الحرب الناشبة على حدود فرنسا فان فاز نابليون فازت هي بدوام اشراقها في سماء فرنسا وان قُهر قُهرت وأُنزلت عن العرش وقُضي عليها بالحرمان او الموت

كانت الامبراطورة تتوقع اخبار الحرب بكل شوق لترى ما تكون نتيجتها. فلما كان اليوم الثاني من ايلول سنة ١٨٧٠ وصلت الى باريس مساءً انباءٌ مبهمة مزعجة قلقت لها اوجيني فخامرتها الظنون والهواجس وباتت كأنها على فراش من قتاد . وفي اليوم التالي جلست في غرفتها في قصر التويلري تساورها الهموم والاحزان وهي تودّ ان تعرف ما جرى لزوجها وولدها المحبوبين وما عسى ان تكون نتيجة هذا القتال . ولا بُدّ انها في تلك الساعة وهي تخطر في غرفتها ذهاباً واياباً قد تذكرت ما جرى لها منذ سبعة

عشر عاماً حينما تحققت مطامعها اذ انها وهي حفيدة وليم كاربتريك الاسكتلندي تاجر النبيذ قد اقترنت بنابليون وارتقت الى عرش فرنسا . في ذلك اليوم كانت باريس كلها ترقص فرحاً وسروراً وقد أُطلقت فيها المدافع وقرعت الاجراس وصدحت الموسيقى بأطرب الحانها وزُيّنت الشوارع بافخر زينة وخفقت الرايات على المنازل والقصور واحتشد الاهلون الوفاً موءلّفة في الشوارع يحيون الامبراطور والامبراطورة وقد بلغ هتافهم عنان السماء . وكانت اوجيني آنئذٍ راكبة في عربة ملوكية بازاء زوجها وهما سائران الى الكنيسة في موكب فخيم فائق الوصف . ولم تكد عربتهما تمرُّ تحت قوس نصر كان منصوباً تجاه قصر الاليزه حتى حدث حادث كان له وقع سيء في النفوس وذلك ان تاج الامبراطورية الذي كان قائماً على العربة قد سقط الى الارض متدحرجاً بين اقدام الخيل فتشاءم الجمهور من هذا الحادث وعدُّوه انذاراً سيئاً . غير ان اوجيني وهي في تلك الساعة في أسمى مجدها واوج سعادتها قد ابتسمت مزدرية بمثل هذه الاوهام الباطلة . . . اما الان وقد تقوّضت اركان سعادتها وارتجّ بنيان مجدها فتذكرت ذلك الحادث وخشيت ان يتمّ ذلك الانذار فيُقضى على تاج مجدها بالسقوط وتضطرّ ان تجرّ اذيال الغم والشقاء بعد ان كانت رافلة في مطارف الجلال والأبّهة

ظلّت الامبراطورة تناجي نفسها بمثل هذه الافكار حتى اذا اقبل المساء ظهرت لها الحقيقة المرّة وشاع في كل باريس ان العدو قد كسر نابليون في معركة سيدان شرّ كسرة وأسره مع كل جيشه

وقع هذا النبأ على اوجيني وقوع الصاعقة وتحققت الان سقوط تاجها وتاج زوجها الى المذلة والهوان . غير انها لم تستسلم للضعف ولم تخُر عزيمتها في الحال بل اصرّت على البقآء في عرشها . ولما اشار عليها مستشاروها بالفرار الى خارج فرنسا نظرت اليهم بكل عظمة و كبريآء وقالت انها لا تفعل ذلك بل تحكم المملكة وتحارب في سبيل انقاذ زوجها وفرنسا الى آخر رمق من حياتها

اما الاهلون فحالما بلغهم نبأ سقوط الامبراطور وانكسار الجيش هاجوا وماجوا واخذوا يتألبون جماهير جماهير في الشوارع وحول القصر وهم يصرخون بمل أفواههم : فلتسقط الامبراطورية..ولتسقط الاسبانيولية..

هذه الاصوات التي نادت باوجيني منذ سبعة عشر عاماً امبراطورة وقد حيَّتها بأحسن انغام الترحيب والتهليل قد انقلبت الان عليها تطلب سقوطها وموتها

كانت الامبراطورة اوجيني اسبانيولية الاصل وكان الباريسيون يكرهونها منذ بضعة اعوام لانهم حسبوها علة جميع النوائب التي تفاقمت في فرنسا بفضل الامبراطورية . فلما حدثت الموقعة الاخيرة وأُخذ نابليون اسيراً قاموا يريدون الانتقام من شخص الامبراطورة وقد تجسم مقتهم لها ونفارهم منها

وفي اليوم الرابع من ايلول الساعة الثالثة بعد الظهر جاء الى القصر مترنيخ سفير النمسا ونيغرا سفير ايطاليا فاجتمعا بالامبراطورة وأنذراها بما يضمر لها الشعب من الانتقام وأشارا عليها ان تترك القصر وتختبئ في مكان

آخر . وكان بعض الرجال المخلصين من الحاشية الامبراطورية قد اجتمعوا ايضاً في القصر وشرعوا يبينون للامبراطورة خطر موقفها ويحثونها على الفرار لانقاذ حياتها وإخماد نار الثورة . اما هي فأبت كل الإباءَ وصرّحت بعزم ثابت انها لا تتنازل عن عرشها الاَّ اذا اكرهها على ذلك مجلس وكلاء المملكة . وفي تلك اللحظة جاءَ احد اعضاءَ المجلس التشريعي وقال ان الثائرين قد هجموا على مجلس الوكلاءَ فأنزلوا الرئيس عن كرسيه وفرّقوا الاعضاءَ ونادوا بالجمهورية

سمعت الامبراطورة ذلك فلم تفقد عزمها ولم يظهر عليها اقلّ ميل الى الفرار . وكان الثائرون يقتربون شيئاً فشيئاً من القصر وهم يصيحون ويعربدون وقد رفعوا الرايات الحمراءَ ونادوا بالجمهورية وباعدام الامبراطورة باصوات كأنها الرعود القاصفة

رأت الامبراطورة كل ذلك من احدى نوافذ القصر وشعرت بدنو الخطر الفظيع فقالت للذين حولها برباطة جاش — سأَعرف كيف أموت اذا لزم الامر . فقال لها احد الحضور — انكِ يا ذات الجلال باصرارك على البقاءَ هنا تعرّضين بنفسكِ وبنا الى أفظع الميتات فهل تريدين ان يكون ذلك جزاءَ امانتنا في خدمة جلالتك ؟

فتأَثرت الامبراطورة لهذا الكلام وتراكمت عليها الاحزان وقد تشرّدت افكارها وغاصت في بحار التأملات واخيراً رأَت ان تستسلم لمشورة اصدقائها ولا تعرّضهم للهلاكة فرفعت رأسها وقالت — سأذهب فكونوا كلكم شهوداً على اني اتممت واجباتي الى النهاية . ولما قالت

هذا تقدمت بتمام السكينة وبمنتهى الحزن فودعتهم واحداً واحداً وهي تلتمس منهم السعي بانقاذ انفسهم. وفيما كانت تودعهم وهم يذرفون الدموع السخينة اذا بصراخ اشدّ عنفاً من الاول قد انفجر خارجاً بين الجماهير الهائجة. وذلك ان احد الغلمان قد تسلّق سور القصر ونصب راية حمراء على احد اعمدة الباب. فما رأى الثائرون هذه الراية وقد كانت علامةً فيما بينهم حتى علا ضجيجهم وهجموا هجوماً عنيفاً فدخلوا القصر وانتشروا في حدائقه وازدحموا في اروقته ودهاليزه. فشعرت الامبراطورة بوقوع الخطر وتحرّكت فيها عاطفة حب الحياة وفي الحال ارتدت رداءً بسيطا وجعلت على رأسها قبعة قش بسيطة وسارت يتبعها بعض وصيفاتها ورجالها في رواق يؤدي الى قصر اللوفر. وقد سارت بخطوات ثابتة كأنها غير مكترثة بالاخطار التي تتهددها وكان تحطيم الزجاج وخلع الابواب وصراخ الثائرين بسقوط الامبراطورة مما تهلع له قلوب الابطال غير ان قلب اوجيني لم يهلع بل كان معظم اهتمامها منصرفاً الى انقاذ الذين تفانوا في حبها والامانة لها. ولما بلغوا الباب الداخلي المؤدي الى قصر اللوفر وجدوه مقفلاً فصاحت الامبراطورة برجالها — اتركوني وانجوا بانفسكم لان الوقت لم يعد الان متسعاً لانقاذي.. غير ان تلين صرّاف الامبراطور الخصوصي قد هرول في تلك اللحظة مسرعاً وبيده مفتاح فعالج به الباب حتى فتحه فدخلت الامبراطورة واتباعها وأُقفل وراءهم الباب

وكان مترنيخ ونيغرا يسمعان وهما في قصر اللوفر اصوات الثائرين فحارا في امرهما وخشيا إن هما خرجا بالامبراطورة الى الساحة أن يعرفها

بعض الهائجين فيفتكون بها لا محالة . اما الامبراطورة فلما رأت ان ليس لها نجاة الاَّ بخروجها من القصر تقدمت فودعت اصحابها وهي في اشدّ حالات التأثر وطلبت من مدام لبرتون وهي اصفى وصائفها اخلاصاً وحبًّا ان ترافقها في خروجها ثم سارت بقدم ثابتة ففتحت باب القصر بيدها وخرجت الى الشارع وبصحبتها مدام لبرتون ومترنيخ ونيغرا . وكان نيغرا ممسكًا بيدها فقالت له همسًا : هل تشعر بما يدلُّ على ارتعاشي ? فاجابها — كلاَّ يا مولاتي

وما ساروا بضع خطوات في الشارع حتى ابصر مترنيخ عربةً مقفلةً معدة للاجرة فاستأجرها في الحال وقفزت اليها الامبراطورة ووصيفتها فسارت بهما تخترق جماهير الناس دون ان يعرفهما احد . ولبث مترنيخ ونيغرا يخفران العربة بابصارهما حتى توارت عن العيان . وقد كان هذان الرجلان يودَّان ان يرافقا الامبراطورة الى آخر حدود فرنسا بيدَ انهما رأيا ان وجودهما بازائها قد يجتذب الانظار ويحمل على الشكوك وربما كان سببًا في تراخي العلائق بين حكومتيهما والحكومة الفرنساوية

سارت العربة بالامبراطورة ووصيفتها الى منزل بسُّون احد اعضاء مجلس الشورى ولما بلغتا المنزل صرفتا العربة وصعدتا الى الطبقة الرابعة حيث كان يقطن بسُّون غير انهما لم تجدا احداً من اهل المنزل فجلستا على بعض درجات سلم المنزل تنتظران . ولما اعياهما الانتظار وقد خشيتا ان يستريب بهما احد سكان الطبقات الاخر من ذلك المنزل صممتا على الالتجاء الى مكان آخر واخذتا تبحثان في ذاكرتهما عن رجل آخر يمكنهما

الاعتماد على اخلاصه ومعونته. فتذكرت الامبراطورة طبيب اسنان اسمه افانس وهو اميركي الاصل كان يقطن بالقرب من ذلك الشارع . وكان فيما مضى يتردَّد على القصر لمعالجتها ومعالجة الامبراطور . ولما تذكرت الامبراطورة هذا الرجل سُرَّت في داخلها ونزلت في الحال مع مدام لبرتون فسارتا في الطريق قليلاً حتى اذا ابصرتا عربة ركبتاها فأقلتهما الى حيث شاءتا . وكانت هذه العربة مكشوفة ولعلها كانت من الاسباب التي انقذت حياة الامبراطورة لان الشوارع كانت لا تزال وقتئذٍ غاصة بالثائرين ولا يمكن لاحد منهم ان يظن ان المرأة التي يطلب الشعب اعدامها تخاطر بحياتها وتسافر بهذه الطريقة جهاراً

ولما دخلت اوجيني ورفيقتها الى منزل الدكتور افانس لم تجداه في المنزل فجلستا في ردهة الاستقبال تنتظران مجيئه ولما حضر الدكتور ورأى الامبراطورة ملتجئة اليه تأثر شديداً لحالتها وأظهر تمام استعداده لخدمتها والمجازفة بحياته في سبيل انقاذها

وقد كتب افانس في مفكراته التي طبعت بعد ذلك ما يأتي : عرفت هذه المرأة سنين طويلة امبراطورةً على فرنسا وقد رأيتها الان ملتجئةً اليَّ تستغيث بي بعد ان كانت محاطة بجمهور من الاصدقاء ورجال القصر ومشاهير المملكة فأمست منسيةً من الجميع في بلادها الخاصة واضطرت الى الاستغاثة برجل غريب الديار — لدى هذا التأمل اراني لا اقوى على اخفاء عواطف الاسف والشفقة الشديدة

وكان لافانس صديق حميم يُقال له كرين وهو اميركاني ايضاً ومهنته

الطب فاستدعاه اليه وجلسا معًا يرتبان طريقة فرار الامبراطورة عن طريق انكلترا

وباتت الامبراطورة ووصيفتها تلك الليلة في منزل الدكتور افانس براحة وطمأنينة

وفي اليوم التالي انطلق كرين الى جهة قصر التولر ليرى ماذا حدث بعد اطلاع الشعب على اختفاء الامبراطورة ولما عاد الى منزل صديقه قال ان الاهلين قد سكن ثائرهم وعادوا الى اشغالهم بعد ان كتبوا على جميع ابواب القصر بالطباشير ما يُفهم منه ان هذا القصر قد أَصبح مُلكًا للامة

وفي ذلك النهار خرج الدكتور افانس بضيفتيه من منزلهِ فركبوا عربة مقفلة وساروا في سبيل النجاة وكانوا كلما بلغوا مخفراً يطلّ الدكتور من نافذة العربة ويقول للخفرآء بتمام السكينة وبدون اقل ارتباك انه ذاهب بمريضة مصابة باختلال الشعور الى مستشفى المجاذيب في نيولي ولذلك فهو يتوسل اليهم ان لا يهيجوها بفحص او تأخير. وقد أُجيب الى طلبه في جميع المخافر. ولما خرجوا من باريس لم تعد الامبراطورة قادرة على امتلاك عواطفها فأطلقت لنفسها عنان البكآء

وبعد اربع وعشرين ساعة من خروجهم من باريس وصلوا الى الى مينآء دوفيل حيث كان راسيًا يخت السير جون بورجوين وكانت الامبراطورة والدكتور افانس يعرفانه ولما كشفا له حقيقة الامر اظهر استعداده لخدمة الامبراطورة والاقلاع بهَا الى انكلترا. وجاءَت اللادي بورجوين فهنأت الامبراطورة بنجاتها ثم صعد الجميع الى ظهر اليخت

فأقلع بهم في منتصف الليل من دوفيل . وبعد ثماني عشرة ساعة وصل الى ميناء رايد في انكلترا فنزلت الامبراطورة ورفيقتها بعد ان شكرتا السير بورجوين ومدامته وواصلتا من هناك سيرهما الى هاستنجس حيث اجتمعت اوجيني بولدها المحبوب الذي قاسى تقريباً ما قاسته والدته من الشدائد والاخطار

فضائل المرأة

كان جان جاك روسُّو في ذات يوم جالساً يتحدث مع احدى السيدات وكانت من معارفه فسألتهُ : ما هي الصفات الخارجية والداخلية التي يجدر بكل فتاة ان تتزيَّن بها اذا رامت الاقتران وأحبَّت ان ترضي زوجها وتجعله سعيداً

فأخذ الفيلسوف رقعة وكتب فيها الجدول الآتي : الجمال (٠ صفر) المهارة في تدبير المنزل (٠) العلم والمواهب العقلية (٠) المال (٠) الصلاح القلبي (١)

فنظرت السيدة الى هذا الجدول وذهلت لانها لم تفهم شيئاً ثم قالت للفيلسوف — لعلك تمزح . .

قال وهمتِ ياسيدتي بل ان ما كتبته هو الحق الصراح واليك جلاء الغامض : اذا كان للفتاة قلب صالح فهو لها اساس تستطيع ان تبني عليه باقي الصفات والمزايا الحسنة وقد قدَّرتُ هذه المزية الاساسية برقم ١ . فاذا هي اضافت الى صلاح القلب جمالاً فكأنها اضافت الى الواحد صفراً فتصير قيمتها ١٠ واذا اضافت الى هاتين الصفتين عقلاً فكأنها اضافت الى العشرة صفراً آخر فتصير قيمتها ١٠٠ واذا اضافت الى ذلك مهارةً في تدبير المنزل اصبحت قيمتها الفاً وهلمَّ جرًّا. وعليه فيكون صلاح القلب هو الاساس لكل هذه القِيَم وبدونه تكون كل صفات المرأة ومزاياها اصفاراً بازاء بعضها لا قيمة لها الا باضافتها الى الواحد الذي هو الصلاح القلبي — اساس كل الصفات الطيبة والفضائل السامية

أخوات مشاهير كتّاب فرنسا

لا يخفى ما للمرأة من التأثير الخطير في شأن الرجل في جميع اطوار حياته فهي تربّيه طفلاً وترافقهُ شاباً وتخدمهُ شيخاً ولها في اكثر اعماله واحواله اليد الطولى والرأي الأعلى . وقد بيّنّا في مقالتنا « الامهات » ١) مجمل تأثيرها في اولادها ووعدنا ان ننشر كلما تيسَّر لنا الوقوف على شيءٍ من ذلك. وغرضنا الان ان نبيّن تأثيرها اختاً . وقد اشاد جمهور من العلماء ومشاهير الكتاب بفضل اخواتهم وتأثيرهنَّ في نجاحهم . فمن ذلك ما قصدنا اثباته في هذه المقالة وهو مجمل ما اشتهر عن بعض كتَّاب فرنسا بالنظر لما لاخواتهم معهم من العلائق المبينة لغرضنا فنقول :

(١) باسكال واختاه

ان شقيقتَي باسكال قد عطفتـا على اخيهما بمنتهى الرقة والحب حتى شعر الكاتب بانه قد بلغ تمام السعادة والاقبال آداباً وصحةً . ففي اثناء مرضهِ اهتمَّت بهِ اختهُ الكبرى — جيلبرتا — وافرغت في خدمتهِ جهدها بحيث احتمل باسكال آلام المرض بدون ضجر ومضض . اما اخته الصغرى — جاكلينا — فكانت طبيب نفسه . ولما تزوَّجت جيلبرتا ببيري لم تغفل عن العناية باخيها بل ظلَّت تدبّر منزلهُ وتُعنى بهِ وباختها جاكلينا ايضاً وقد كتبت تاريخ حياتهما وكانت تصلّي لاجلهما وظلَّت لهما خادماً اميناً سحابة العمر . وكانت من لباب قلبها تشتهي ان تظلّ هي على الدوام في حالة البساطة

١) انظر صفحة ١٣٦ من السنة الثانية من هذه المجلة

والجهل ويندفع اخواها في ميدان العلم والشهرة . وبقيت جيلبرتا حتى انفاسها الاخيرة تعتني باخويها وعلى الاخصّ بعد وفاة والدتها . وكان زوجها واولادها يشاركونها في العناية بباسكال وشقيقتهِ الصغرى . ولما عوَّلت جاكلينا على الترهُّب في احد الاديرة أَعلمت اختها بسرّها وشكرت لها جميع اتعابها ولما ترهَّبت كتبت لها ان تنبئ بذلك اخاها. فاجابتها جيلبرتا بانه «حزن جداً لفراقها» . وعلى هذه الصورة كانت جيلبرتا البسيطة تخدم في وقت واحد عقلين كبيرين . اما جاكلينا فكانت مولعةً باخيها بيدَ انها لم تكن قادرة على القيام بخدمتهِ مثل اختها الكبرى . فكان قلبها كقلب اختها واما عقلها فكان أَسمى والى هذا اشار احد واصفيها بقوله : «ان السماءَ منحتها جميع مواهب العقل والادراك مع سائر مزايا المرأة» . وقال غيره : «نعم انها كانت كاخيها في العقل ولكنها كانت تفوقه بطبعها» . غير ان تلك المواهب العقليَّة التي امتازت بها هذه الفتاة كانت عليها وبالاً فانها باجتماعها مع جفاءِ معيشة الدير قد انهكتها واوردتها حتفها . وبقدر ما كانت مواهبها شعريَّة خيالية بمقدار ذلك كانت مواهب اخيها الرياضية. وقد استفاد من علومها ومواهبها ريشليه والسيدة مونبانسيه وكورنيل العظيم . وكما امتازت هذه الفتاة بتوقُّد الذهن وجودة العقل امتازت ايضاً بجمال الطلعة والقدّ الفتَّان غير انها أَبَت ان ترتبط بسنَّة الزواج بل فضَّلت التبتُّل على ملاذّ العَالم وبذلك اجتذبت اخاها الى الحياة الدينية مع انه كان مغرمًا بالهندسة وسائر العلوم الرياضيَّة . وقد كتب اليها مرةً يقول : «لا شيء يستطيع ان يحول دون غزارة مواهبه الممنوحة له من الله» .

واخيراً كتبت جاكلينا الى اختها تنبئها بان «اخاها قد اعترف لها بشدة ميله بحيث انها صارت تشفق عليه» . ولكنها مع هذا تغلَّبت عليه وقادتهُ الى التفكُّر بامر الخلاص مع انه قبيل ذلك كان يُعدّ نفسه للزواج باحدى الفتيات الغنيَّات فرفض بارشاد اخته ذلك واندفع بمثالها الى اشدّ انواع المعيشة تقشُّفًا وزهداً وظلّ على ذلك حتى وفاته . ولعل باسكال لو لا اخته جاكللينا لما كتب ذينك المصنَّفين الجليلين « رسائل الاقاليم » و « الافكار » . ولما تُوفّيت جاكلينا حزن عليها باسكال حزنًا مفرطًا وانقطع الى اخته جيلبرتا . ومع ان آلامه الجسديَّة كانت تجعل معاملتهُ لاخته عنيفة جداً بعض الاحيان غير انها لم تكن لتغيّر مسلكها معه او تنفر منه . واذا كانت جاكلينا أحبَّت اخاها بعقلها فان جيلبرتا أَحبَّتهُ بقلبها اللطيف وعواطفها الرقيقة

(٢) شاطوبريان واخته لوسيل

لم تكن لوسيل شاطوبريان تحب اخاها باقلّ من المحبة الموصوفة آنفًا بل كانت تفوقها توثُّقًا وتعلُّقًا . فكان الاثنان مثال المحبة والوداد وكانا لا يفارق احدهما الآخر في الدرس والتنزُّه واللعب والقيام والنوم فيجدان في كل ذلك لذةً فائقةً . وهذا ما حمل شاطوبريان ان يقول بعد ذلك ان لوسيل وحدها هي التي انعشت فيه حب الطبيعة وقادته الى وصفها احسن وصف . وانظر ماذا كتبت مرة لوسيل لاخيها : « انا لا احدثك بعد الان بشيء عن حداثتنا ونقاوة افكارنا وسرورنا وسعادتنا المتبادلة بمشاهدتنا لبعضنا على الدوام » . قال اناطول فرنس : « وكانت

لوسيل لا تطيق فراق اخيها فلم تفارقهُ البتة وكانا يدرسان معاً ويتنزَّهانِ في الاحراش منفردين » . وكتب شاطوبريان : « لما كنا نتحدث عن العالم كنا نعني به العالم المنحصر فينا مع ان وجه الشَبَه قليل جداً بين العاَلمين » . اما انفرادهما في وسط الطبيعة الفتَّانة فأيقظ في قلبيهما ذاك الشغف الشديد الذي وصفهُ شاطوبريان في بعض مصنَّفاته . ولما كانا يفترقان كانا يذوقان مضاضةً اليمةً لا تزول الا بالاجتماع . وخلاصة القول ان شاطوبريان كان يحب اخته محبةً غريبةً وبين جميع البنات اللاتي شاهدهنَّ في مدة حياتهِ لم يمل الى واحدةٍ كميلهِ الى لوسيل لانها كانت ملاكهُ الحارس وسبب نشاطه واشتهاره . واما لوسيل فكانت تحسب محبة اخيها لها كجائِزة سنيَّة لا تعدل بها الارض باسرها . وكان لشاطوبريان أخوات أُخَر غير لوسيل بيدَ انه لم يتعلَّق بواحدةٍ منهن كتعلُّقهِ بلوسيل التي كان يفتخر بها على الدوام ولم تكن هي لتغفل طرفة عين عن اخيها وسائر مطاليبه وكانت تقول : « ان سعادة اخيها اثمن شيءٍ لديها » وهي التى دبَّرت امر اقترانه بالآنسة لافين . وظلَّت لوسيل مولعةً باخيها متعبدةً له حتى تُوفيت في احد الاديرة دون ان تشاهده . فاشتدَّ ذلك عليه وقال : « لقد اسكنتها في شغاف قلبي فلن تخرج منه الاَّ بانصرام حبل حياتي »

(٣) بلزاك واخته لاورا

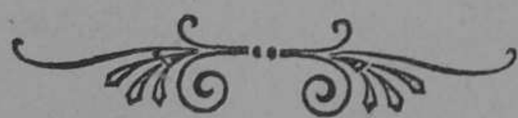
كانت لاورا شديدة الشغف باخيها وكانت له ميناءً امينًا يبادر اليه كلما اشتدَّت عليه عواصف الحياة فيجد فيه الراحة والطمأنينة . وقد ملأَت هذه الفتاة حياةَ اخيها وكانت له نعم المعزّي والمنشِّط والمعين الامين .

وكثيراً ما كانت تقترح عليهِ الكتابة في مواضيع شتى فينصاع لطلبها فرحاً مسروراً . وكان على الدوام يطلعها على افكاره وآرائِه ويقرأ لها مصنَّفاته ويقول : « ما اسعد الناس الذين اخواتهم كلاورا » . وكان اسمها على الدوام مرتبطًا بكل كلمة يكتبها ولم يكن شيء يحول بينهما ابداً . ولما احبَّ البرنسة الروسية مدام البرنس غانسكي لم يُعلم احداً بذلك الاَّ اخته

(٤) رينان واختهُ هنريت

كان تأثير هنريت في حياة هذا الفيلسوف الكبير عظيماً جداً بحيث اصبح رينان مَديناً لاختهِ باكثر مظاهر الشهرة التي نالها . فقد كانت حياتهما العقلية وامتزاج مشاربهما متوثقين اشدّ التوثُّق كما اشار الى ذلك رينان بقوله : « لقد كانت اختي آلةً لحياتي العقلية فلما تُوفيت رافقها قسم من وجداني الى القبر » وقد وصفها بكلفها العجيب بالشغل لانها لم تكن تنفر قط من الشغل العقلي اياً كان وطالما ساعدت اخاها في تآليفه الأَثريَّة والفلسفية ولا سيما في كتابه « نشأة الديانة المسيحية » اذ انها كانت كاتبةً ماهرةً شهد لها رينان وكثيرون غيره . وكانت هنريت اكبر من رينان سناً ولذا عكفت عليه منذ الصغر تعتني به وتداريه ليس كاختٍ فقط بل كامّ ٍ ايضاً . وكان رينان ينقاد لها في كل شيء . اما هي فخدمتهُ خِدَماً وفيةً تفوق جميع خِدَم كل امرأة ولذلك يقول رينان « انها كانت ملكةً في حياتي الادبية ولم يملك احدٌ مثلها قط في حياة اخرى . وكانت حياتها مملوءَةً حباً واخلاصاً » . وظلَّت هنريت منذ الصغر — حينما كانت تنطلق مع اخيها (الصغير) الى الكنيسة وتقيه من

البرد — حتى آخر نسمة من حياتها تواصل العناية التامة به . ولئن كانت هنريت تحب الحيـاة وملاذّها غير ان معيشتها كانت في أسمى مراتب الآداب والفضيلة . وقد شاخت قبل اوانهـا كما شهد بذلك اخوها اما مزاياها فكانت سامية جدًا . وقد أبت قبول سنَّة الزواج مفضِّلةً عليهـا حياة العلم والتعب . ولهذا فصلت عن اخيها بعض الحين واشتغلت بالتعليم مدةً . وكانت لفرط شغفها بالعمل تتعب كثيرًا وتجهد نفسها اكثر من طاقتها حتى ان اخاها لما شاهدها سنة ١٨٥٠ في برلين كاد لا يعرفها من شدة هزالها «ولم يبقَ وقتئذٍ منها كما قال رينان الاَّ سمات الصلاح الغير المتناهي» . ولما اقترن رينان بكورنيلية شيفِّر شعر بقلق شديد لم يكن في الحسبان وذلك لِما دبَّ بين زوجتهِ وشقيقتهِ من دواعي الخصام الذي لم يلبث ان زال تمامًا بحكمة شقيقتهِ وتدبيرها . وبعد ذلك بمدة ماتت هنريت بمرضٍ عضال بعيدةً عن وطنها قبل ان يفرغ اخوها من تأليفهِ الشهير «حياة يسوع» الذي شرع به وكانت هي مشغوفة به كثيرًا . وكان ذلك كصاعقة انقضت على رينان فبكاها طويلاً ولم ينسها مدى الحياة بل كان تذكارها حيًّا نصب عينيه على الدوام . وبعد وفاتهـا بسنة — اي في سنة ١٨٦٢ — الَّف كتيّبًا في وصف هنريت لم ينشره الا بين اصدقائه ومعارفها ومما جاء فيه قوله : « ان اختي كانت تكره ضجيج العالم ولذلك اخشى نشر هذه الصفحات بين القرآء لئلاَّ تعنِّفني على ذلك في القبر »



حجر الفلاسفة

حدثت الرواية الآتية في ما مضى من الزمان في بلاد لا فرق بينها وبين سائر البلدان

وكان في هذه البلاد كما في سائر العالم عبيد وأسياد . وكان العبيد يبغضون الاسياد وهؤلاء يحتقرون العبيد ويزدرونهم

وكان الجوع والفقر منتشرَين في هذه البلاد كما انتشرا في جميع الاصقاع وقد انحطّت الآداب وباع الاخ اختهُ والام ابنها والابن اباه ونسي الكثيرون الذمة والحياء وسَرَت في المدن الكبيرة الرذيلة والرفاهية والاوبئة

ومع هذا كانت الشمس تشرق على هذه البلاد كما أشرقت في اليوم الاول من الخليقة قبل ان يظهر الشرُّ بين الناس

وعلى مسافة بعيدة من احدى المدن الكبيرة كانت حديقة غنّاء قام في وسطها قصر جميل شاهق البنيان متسع الاركان . وكان في جملة سكّانه ولدان صغيران انما كانت الشمس تشرق لهما كل نهار

وهما : صبي — ابن رجل من الاشراف واسع الثروة بسيط الجاه هو رب القصر المذكور . وبنتٌ — ابنة رجل من العبيد الارقّاء

كان الصغيران يقضيان ساعات كل نهار في اللعب واللهو دون ان ينتبه احد من اهلهما الى هذه الصداقة التي كانت تنمو بينهما مع الايام . فترعرعا كشجرتين صغيرتين من اصل واحد او كفرعي شجرة واحدة اذا

قطعتَ الفرع الواحد ذبل الآخر ومات

هو كان يريها اعشاش الاطيار بين اوراق الاشجار ويعلّمها ان تسمع حفيف السنابل في الحقول وخرير مآء النهر الجاري . وهي كانت تقوده الى التأمل في جمال الطبيعة وتعلِمه ان يشعر بها

وفي ليالي الشتآء الطويلة كان الصبي بعد ان يفرغ من دروسه على اساتذته يجيء الى صديقتهِ فيسرد لها ما تعلّمه ثم يحكي لها ما يعرفهُ من الحكايات عن الاصقاع البعيدة حيث الشتآء متواصل والليل ابدي وحيث نهاية الارض وبدء الفضآء الواسع

كانت الفتاة تسمع من صديقها هذه الاخبار العجيبة بمنتهى اللذة والغبطة فتتصوَّر الناس سكان تلك الاصقاع البعيدة مرتدين بجلود الوحوش وتشعر انهم في امسّ الحاجة الى الشمس فتسند رأسها الى صدر رفيقها وتقول له — فلنذهب الى اولئك الناس ونحمل لهم الشمس

كانت هذه الفتاة تعتقد بانها وحبيبها قادران ان يأخذا الشمس الى اولئك الناس لان الشمس كانت مشرقةً في نفسيهما

مرَّت السنون على ما ذكرنا وقد تمكَّنت الالفة بين الصغيرين ونمت في قلبيهما جراثيم الحب الطاهر فشبَّا على ذوق واحد وكانت عواطفهما ونفساهما واحدةً في جسمين

اخيراً شعر الاب بان ابنه قد تجاوز سن الحداثة واصبح شاباً ورأى وجوب ارساله الى مدرسة عالية لاستيفآء دروسه فيها . فأرسله الى المدينة

كانت نفس هذا الشاب صافية نقية عندما جاء المدينة . ولم يلبث ان تعرف بجمهور من الاصدقاء في المدرسة وخارجها فكان يقضي جانباً من ساعات نهاره في الدرس والمطالعة والجانب الآخر في معاشرة الناس ودرس احوالهم

كان هذا الشاب آية في الجمال والظرف ومحاسن الاخلاق . لم تره امرأة او فتاة الا شُغفت بعذوبة حديثه كما افتتنت بجماله . اما هو فكان ينظر الى جميع النساء والفتيات على السواء ولم يكن في قلبه الا صورة محبوبته التي نشأ واياها منذ الصغر

رأى هذا الفتى في المدينة اموراً كثيرة

رأى جمهوراً من الرجال الاقوياء العقلاء والخطباء المشهورين هائمين بالنساء الى درجة الجنون . ولكنه من الجهة الاخرى سمع هؤلاء الرجال ينعتون المرأة بكل ذميم وقبيح

رأى وسمع ذلك فأيقن ان المدينة خالية من الصدق والحق وانها مفعمة بالرياء والكذب . وللحال شعر بانقباض نفسه وحنّ الى الرجوع الى منزله ليجتمع برفيقة حداثته لأنهُ رآها أبدع صورة وأطهر قلباً وأشرف نفساً من جميع النساء التى رآهنَّ في المدينة ورأى انهُ باقترانه بها سينال أقصى امنية في الارض وينجو بها من رؤية هذه الشرور والادناس

وما زال هذا الفكر يتجسَّم في رأسه حتى لم يعد في امكانه الصبر فبرح المدينة وعاد الى قصره وهو لا يدري ما خبأه له القدَر

فاستقبلهُ ابواه وذووه بغاية الفرح والسرور ولكنهُ لم يرَ بين المهنئين

اقرب الناس اليه . لم يرَ رفيقة صباه وحبيبة قلبه . ولما سأل عنها قيل له ان اباه قد باعها لسيد سواه ولا احد يعلم عنها شيئًا الان

سمع الشاب ذلك وقد اصابه نوع من الذهول فلم يدرك شيئًا . ولما عاد اليه رشده وتذكر الحديث أظلمت الدنيا في وجهه وأنكر عمل ابيه وتولاَّه اليأس الشديد وتولَّد في نفسهِ حبُّ الانتقام وصار من ذلك الحين يحيي لياليه في النحيب لا يأنس بمشاهدة احد ولا يرغب في سماع شيء وكان يزداد مقتًا لابيه ونفاراً من جميع ارباب السيادة وطبقة الاشراف . وما زال كذلك حتى ذوت نضارته وهزل جسمه

وفي احدى الليالي دخل مخدع ابيه فألفاه في سبات عميق فدنا منه وفي يده مدية يريد ان يطعن بها اباه ، غير انه لم يلبث ان ثاب اليه رشده فخرج الى غرفته وأقفل عليه الباب

ومن ذلك الحين اعتزل الناس قاطبةً وأكبَّ على الكتب القديمة والحديثة يطالعها ويدرس شؤون البشر وتاريخ العمران فرأى ان العبودية هي شرُّ ما انتجه الانسان لشقاء الانسان

ثم اخذ يدرس في الكتب القديمة عن «حجر الفلاسفة» فرأى انه «الحرية والمساواة والإخاء»

نسي هذا الشاب العالَم باسره ولكنه لم ينسَ رفيقة حداثته وزنبقة حياته وكان كلما تذكرها يزداد اكتئابًا وضنىً ويشعر بنار الانتقام تزداد اضطرامًا في صدره

قضى هذا الشاب في قصر والده بضعة اسابيع وهو في منتهى الكمد

والوحدة ولما ضاقت في وجهه المسالك ولم يعد في طاقتهِ احتمال وجوده بازآء ابيه عمد الى السفر والجولان فخرج من ذلك القصر هائمًا على وجهه...

☆

بعد هذه الحادثة باربعين سنة وقف شيخ على شاطئ نهر النيل يتأمل في مياهه الجارية

كان هذا الشيخ عالمًا كبيراً قد حَنت الايام ظهره وجعَّدت الهموم وجهه

وقد اتخذ لنفسه منزلاً صغيراً مشرفًا على النهر بعيداً عن مساكن الناس . وكان يقضي ايامه تارةً في منزله بين كتبه وادواته وطوراً على شاطئ النيل

وجلس هذا الشيخ في منزله في احد الايام وكان امامه على منضدة صغيرة حجرٌ جميل يتألق نوره كالشمس

هذا هو «حجر الفلاسفة» الذي أفنى هذا الشيخ ايامه في البحث عنه . هذا هو الحجر الذي يحرّر العبيد ويجعل جميع البشر اخوةً

كان الشيخ جالسًا امام الحجر يتأمل في اتّقاده ولمعانه والدموع تنهمر من عينيه

ان هذا الشيخ قد قضى حياته بطولها وهو يبحث عن هذا الحجر وقد جاب لاجل ذلك القفار وطاف في اكثر الامصار حتى وجده اخيراً في ارض الفراعنة

بهذا الحجر ستزول شرور البشر وقساوتهم وبذاءتهم وتنتشر الحقيقة والمساواة في كل مكان

ولكن من اين سيبتدىء هذا الانقلاب في الكون ؟

وعن اي منبر سيُسمع صوت الحرية ؟

اطرق الشيخ ملياً وقد تمثلت لهُ صورة تلك الفتاة الجميلة التى كان موتها سبيلاً الى هذا الاكتشاف . فوقف وصاح بملء فيه : اجل ايتها الحبيبة ان ضريحكِ سيكون اول منبر يُسمع عنه صوت الحرية والمساواة والاخآء .. انهم قد فرّقوا بيننا ثم أذلُّوكِ وظلموكِ فقضيتِ شهيدة قساوة البشر واحكامهم الجائرة ...

حمل الشيخ هذا الحجر العجيب وانقلب راجعاً الى بلاده ليزور ضريح محبوبته ويكشف بعد ذلك للبشر ما قضى السنين الطويلة لاجله

وكان في طريقه يمرُّ على المدن الآهلة بالسكان فيرى الناس يبحثون عن الحقيقة في غير طرقها

وكان اذا حاول الكلام يتصدّى له الجمهور بالتهكم والازدرآء والتهديد بالرجم فيواصل سيره واجماً متحملاً الاهانة والجوع والبرد الى ان وهنت قواه

ولكنه كان يتحامل على نفسه ويسير الى الامام وهو عالمٌ بانه يستطيع ان يغيّر وجه الكون في لحظة واحدة . ذلك ما نشَّطهُ وشدّد عزائمه

وما زال هذا الشيخ يصل السير بالسرى الى ان بلغ بلاده . فانطلق توًّا الى قصر والده فعلم ان والده قد مات منذ ثلاثين سنة وانهُ قد اوصى لهُ بجميع ثروته واملاكه

وكان بعد ايام ان هذا الشيخ قد باع جميع املاكه ووقف ثروته

برمتها لانشآء المدارس والملاجئ لابنآء الفقرآء والعبيد

واما « حجر الفلاسفة » الذي كان لديه فأرسله الى ملك البلاد مصحوبًا بكتاب يقول فيه : « اذا اردتَ ايها الملك ان تعمل شيئًا لرعيتك فزّين بهذا الحجر تاجك وهو ينير امامك سبيل المساواة والاخاء ويوطد ملكك ويرشدك الى اصلاح كل شأن من شؤون رعيتك »

واهتدى الشيخ بعد ذلك الى ضريح رفيقة حداثته فكان يزوره كل صباح ومسآء ويترحم على هذه الزهرة الذابلة قبل اوانها

ولما شعر بدنو أجله أوصى ان يُدفن في قبرها وان يُنقش على ضريحها « لم تجمعنا احكام البشر فجمعتنا احكام الطبيعة »



﴿ نصائح مفيدة (١) ﴾

١ً — نم مع الحمل وقم مع القبرة ٢ً — كن جذلاً متهللاً ولكن باحتشام ٣ً — وقوراً متحفظاً لكن دون درجة الشكاسة والتكبُّر ٤ — مقداماً غير متسرع ولا متهوّر ٥ً — ليكن مظهرك انيقاً لدرجة ارضاء الناس لا اعجابهم ٦ً — وطعامك مغذياً لا مدعاة للنهم والجشع ٧ً — ولهوك كالمراد بالكلمة — للتخلي عن العمل بقصد الراحة وابداً في ما لا غبار عليه ٨ً — لا ترتب في احد ولا تخوّن احداً بدون سابق تجربة لك معه. ولا تصدّق كل شيء مستغنياً عن الادلّة والبراهين ٩ً — لا تكن خفيفاً بسيطاً لدرجة الانقياد الاعمى لكل ذي رأي. ولا مستبداً عنيداً متفرّداً برأيك ١٠ً — اعبدالله وخفهُ وأَحبَّه وهو يباركك بما يتوق اليه قلبك ويشتهيه لك المخلصون

(١) من كتاب « معنى الحياة » لمعرّبه وديع افندي البستاني



تصافح العنصرانِ التركُ والعربُ!

(هي القصيدة الرشيقة التي نظمها حضرة الشاعر العصري الرقيق حليم افندي ابرهيم دموس وتلاها في الحفلة الباهرة التي أُقيمت في حديقة الحرية في بيروت اكراماً ارجال الاسطول العثماني وقد حضرها العدد العظيم من القواد والبحارة والجنود وكبار رجال الحكومة وغيرهم حتى غصت بهم الحديقة وكان حضرة قومندان الاسطول طاهر بك قد استحسن هذه القصيدة وأثنى على ناظمها أحسن الثنآء وأشار الى عبد الغني سني بك (مكتوبجي) ولاية بيروت ان يترجمها الى اللغة التركية وينشرها في اكبر مجلة تركية · وقد بعث بها الينا ناظمها الفاضل لنثبتها في مجلتنا وها هي بلفظها الشائق ومعناها الرائق) :

تلك الحقيقةُ لا تركٌ ولا عَرَبُ ... ولا خلافٌ ولا حقدٌ ولا غضَبُ
ما العنصرانِ سوى بدرينِ قد طلعا ... في جوّ عثمانَ لم تخسفهما الحقَبُ
غصنانِ قد نبتا في روض مملكة ... فيها الجَلالُ وفيها المجدُ والحسَبُ
نجمانِ هذا حوى عزماً وذاك علَى ... هنـا الفخارُ وثَمَّ الجِدُّ والدأَبُ
همـا الشقيقان لا تفريقَ بينهما ... ولا نفارٌ ولا بغضٌ ولا ريَبُ

✲ ✲ ✲

يا حبَّذا هممُ الاتراكِ من هممٍ ... وحبَّذا غرَضٌ مِنْ أَجلهِ اغتربوا
خاضوا البحار الى بيروت فانتثروا ... بهـا كأَنهمُ في أرضنـا شهبُ

✲ ✲ ✲

تحيَّـةً يا بني عثمانَ ينظمُهـا ... فتًى لهُ الصدقُ أُمٌّ والاِبآءُ أَبُ
تحيَّةً يا بني عثمانَ يُنشدهـا ... مَن قلبُهُ بهوى الاوطانِ يلتهبُ
فتًى يعزُّ عليهِ أن يرى وطنـاً ... ينتابُهُ نصَبٌ في إِثرهِ نصَبُ

✲ ✲ ✲

أَحرارَ بيروت حيُّوا الترك واتحدوا ... فالحبُّ رابطةُ الاصلاح والسبَبُ

نحنُ الدواءُ ونحن الداءُ واعجبي   منا الجمودُ ومنا النُجحُ والارَبُ
أُعيذُ قومي أنْ يُرمَوا بلائمةٍ   وفيهم ترتقي الاوطان إن نُدِبوا

✡ ✡ ✡

باللهِ يا أيُّها الوفدُ الكريمُ أما   تبغي التفاهُمَ في ما بيننا يجبُ ؟ ؟
ما بال كتَّابكم راموا قطيعتنا   ونحن اخوانهم والعدلُ مطَّلبُ
أكلَّما صاح منا صائحٌ غضبوا   وكلما قام منا كاتبٌ عتبوا ؟ ؟
فلا الجرائدُ إن ثارتْ ستبعدنا   عنكم فنحنُ على عهدِ الولا عُصَبُ
ولا تظنوا بنا غير الوفاء لكمْ   مهما علَتْ ضجَّة الكتابِ واصطخبوا

✡ ✡ ✡

يا قومُ هبُّوا وتيهوا اليوم واغتبطوا   فقد غدونا إلى الغربيِّ نقتربُ
فذي مراكبنا في البحرِ راسيةٌ   كأنها هِضَبٌ من خلفها هِضَبُ
وتلك قوَّادنا كالأُسْدِ رابضةٌ   والعسكرُ المجْرُ للاحداثِ يرتقبُ

✡ ✡ ✡

اهلاً باسطولنا المرهوب جانبُهُ   فقد نأتْ — مُذْ بدا في ثغرنا — النوبُ
كأنهُ غادةٌ حسناءُ قد طلعت   تميسُ عُجْباً وفي أحشائها لَهَبُ
حيَّتْ فأحيَتْ قلوباً ملوءها شغفٌ   وأكَّدتْ أنما للمجد ننتسبُ
أكرِمْ بهِ وبنودُ النصرِ خافقةٌ   من فوقهِ وهو في الدأماءِ مغتربُ
حيَّاهُ لبنانُ لمَّا شام بارقهُ   واهتزَّ من جانبيهِ الماءُ والعُشُبُ
وهبَّ فجراً نسيمٌ منعشٌ وهمى   مَعهُ غمامٌ على الاسطول منسكبُ
فحُلِّيتْ صفحاتُ الدارعات بهِ   كأنهُ من دموع الغيدِ مكتَسَبُ

✡ ✡ ✡

يا حسنَهُ وجواري القوم حائمةٌ   عن جانبيهِ وموجُ البحرِ يضطربُ
قد زرتهُ فاذا في رأسهِ عجبٌ   في صدرهِ عجبٌ في قلبهِ عجبُ
غرائبٌ لو رأتها الأُسدُ لارتعدتْ   واجفلتْ وتولَّى قلبها الرَهبُ
نارٌ ونورٌ حوى في جوفهِ أبداً   فيهِ الحياةُ وفيهِ الموتُ والنكَبُ
شكراً «لطاهِرَ» مَنْ وُلِّي قيادتهُ   فعندهُ القائدانِ العلمُ والأدبُ

وحولهُ نخبةٌ بالحزمِ قد عُرفوا ... وعزمُهمْ في الرزايا دونهُ القُضُبُ
هُمْ قادةُ الرأيِ بل قومٌ سواسيةٌ ... وهم أُسودُ الشرى والسادةُ النجبُ

* * *

وقفتُ بينكمُ والصدرُ منشرحٌ ... والهمُّ مبتعدٌ والبشْرُ مقتربُ
أُهديكمُ في ثنائي طيبَ خُلقكُمُ ... والنفسُ من انسكُمْ قد هزَّها الطربُ
وكيفما ملتُ صافحتُ السرورَ وقد ... تصافح العنصرانِ التركُ والعَرَبُ !

* * *

يا أَيُّها الوفدُ كُنْ للعقْدِ واسطةً ... واحفظْ مكانةَ قومٍ فيكمُ رغبوا
وأَحسنوا الظنَّ بالأَعرابِ جُهْدَكُمُ ... ففضلهُمْ في البرايا ليس يُحتَجَبُ
لهم نفوسٌ أبيَّاتٌ يزيّنها ... فكرٌ لهُ تخضعُ الاقلامُ والكتبُ
بهم تضيُّ شموسُ الحق إنْ حكموا ... ويستعزُّ قوامُ الملكِ إنْ خطبوا
فسيّروا العدل في الاحكام واتحدوا ... وحكّموا العقل في الحكّام وانتخبوا
الى الذمامِ الى نشرِ السلام إلى ... نزع الخصام إلى الاصلاح فاعتصبوا

وأَنشد حضرة العلاَّمة الاستاذ عبدالله افندي البستاني في هذه الحفلة لرجال الاسطول العثماني على اثر التصفيق الحادّ لبعض الشعرآء هذين البيتين :

مـا صوتُ تصفيق الاكفِّ يهزُّني ... إن لم يكن بين الضلوع لهُ صَدِى
فالصوتُ إن هزَّ الجمادَ ولم يُصِبْ ... وَتَرَ الفوءادِ فانهُ يمضي سُدى

وبعد حين طلب من حليم افندي بعد ان أنشد قصيدته ان يقول عن لسانه البيتين الآخرين :

أنا في الحديقة مـائل كغصونهـا ... وعليٌّ يهوي المجدُ من أَدواحهـا
ستظلُّ طيرُ اليمن تصدحُ فوقهـا ... ويرافقُ الاسطولَ حسنُ صداحِها

ولم يكد ينفرط عقد الحفلة حتى نظم البيتين الاخيرين فأَنشدهما ايضاً حليم افندي الى قائد الاسطول على لسان الاستاذ :

الى وطني العزيزِ أَسيُّ إن لم ... أَكن متعصِّباً عنهُ أُحامي
ولا يحتاجُ ديَّانُ البرايا ... بدعواهُ عليٌّ الى محامي



الدول الاسلامية

(خلاصة تاريخية)

٢. الدولة العثمانية

= من القرن الرابع عشر الى القرن العشرين =

لما زحف المغول في القرن الثالث عشر على بلاد تركستان واخذت قبائل التركمان تهاجر من بلادها هرباً منهم هاجر امير من امراء التركمان اسمه سليمان شاه ومعه نحو خمسين الفاً من عشيرته. وكان ذلك حوالي سنة ١٢٢٤ ميلادية (٦٢١ هجرية) فوصل الى حلب بطريق اذربيجان ثم اراد العودة الى بلاده فوقع بحكم القضاء في الفرات وتوفي فرجع اثنان من اولاده الى بلادهم بكثير من رجاله . وكان له ولد آخر اسمه ارطغرل فسار باربعمئة فارس من عشيرته الى جهة الاناضول . وكان علاء الدين السلجوقي سلطان قونية مشتبكاً آنئذٍ بالقتال مع التتر وقد كادوا يبطشون به ويفرّقون جموعه فانضمّ ارطغرل بفرسانه الى السلاجقة فرجحت كفّة النصر في جهتهم وأجلت الواقعة عن فشل التتر واندحارهم. فسُرّ علاء الدين بهذه النجدة الغير المنتظرة وأقطع ارطغرل بلاد فريجيا الخصيبة الواقعة على تخوم بيثينيا البزنطية. وكانت مدينة سكود احدى مدن هذه المقاطعة اهمّ مركز اتخذه ارطغرل ورجاله لاقامتهم وفيها وُلد لارطغرل ولد سنة ١٢٥٨ (٦٥٦) فسماه «عثمان» —وهو جد سلاطين آل عثمان العظام ومؤسس الدولة العثمانية

١ — عثمان الاول. ارتقى عثمان الى رئاسة عشيرته بعد وفاة ابيه (سنة ١٢٨١) وللحال أغار على جيرانه البزنطيين اعداء الاتراك السلاجقة واستولى على قره جه حصار وبلاد اخرى وبذلك نال حظوة في عيني سلطان قونية فكافأه بالطبل والعلَم إعلاماً بامارته ولقبه عثمان الغازي (سنة ٦٨٨ﻫ). وكانت الحروب متواصلة في ذلك الزمن بين السلاجقة والتتر والمملكة السلجوقية تضمحلُّ شيئاً فشيئاً الى ان انقرضت اخيراً (سنة ١٢٩٤ م) وانقسمت بلادها الى عشر امارات وكانت امارة عثمان واحدة منها فاستقلَّ فيها سنة ١٢٩٩ (٦٩٩) وهي السنة التي يبتدئ منها تاريخ الدولة العثمانية. وكان السلطان عثمان بعيد الهمة كثير المغازي والفتوح فتابع غاراته على حدود مملكة البزنطيين واستولى على بروسه وغيرها من المدن. ولما اطمأنت له البلاد نقل كرسيه الى مدينة يني شهر

٢ — اورخان. وخلفهُ ابنه السلطان اورخان سنة ١٣٢٦ (٧٢٦) ونقل كرسي الملك الى بروسه ثم افتتح مدن ازميد ويزنيق وكمليك واستولى على ولاية قره سي حصار ونظم وجاق الانكشارية الذي ظلَّ بضعة قرون فخر جيوش آل عثمان. وما زال هذا السلطان يتقدم ويمتد في فتوحه حتى أشرف على خليج القسطنطينية وبوغاز غاليبولي سنة ١٣٥٨ (٧٥٩) وشرع في محاربة البزنطيين (الروم) في اوروبا واستولى على عدة حصون وبلدان. وفي سنة ١٣٥٩ اجتاز العثمانيون (بقيادة الامير سليمان ابن السلطان اورخان) البحر على الارماث واستولوا على مدينة غاليبولي التي هي مفتاح القسطنطينية وكان ذلك بداءة فتح العثمانيين في اوروبا

٣ — مراد الاول. وبعد وفاة اورخان خلفهُ ابنه السلطان مراد الاول سنة ١٣٦٠ (٧٦١) فاستولى اولاً على ولاية انقرة في الاناضول ثم عبر الدردنيل وافتتح مدينة ادرنة (ادريانوبل) سنة ١٣٦١ وكانت اهمّ مدن مملكة الروم بعد القسطنطينية ثم تغلَّب على بلاد السرب والمجر والفلاخ والبلغار سنة ١٣٦٥ ونقل سرير الملك الى ادرنه فبقيت عاصمة آل عثمان من سنة ١٣٦٦ الى سنة ١٤٥٣ . وفي نحو سنة ١٣٨١ كان في بر الاناضول بضعة امرآء من الاتراك لم يزالوا باقين في حالة الاستقلال فحاربهم وأخضعهم . وكان قد خطب لابنه بايزيد ابنة امير قرمان رغبةً في اكتساب محبة ولاة اسيا الصغرى والاتحاد معهم فزوَّجهُ بها وبهذه الواسطة استولى على مقاطعة قرمان وغيرها من الولايات ثم على مدينة كوتاهية التي وهبها صاحب قرمان الى ابنته عند زفافها . وسنة ١٣٨٦ أخضع لسلطنتهِ معظم مقاطعتي مكدونيا وبلاد الارناؤوط . وسنة ١٣٨٨ اعتصب ضده اهل السرب والبوسنه والفلاخ والبلغار فحاربهم وشتَّت شملهم

٤ — بايزيد الاول. وافضت نوبة الملك بعد مراد الاول لابنه السلطان بايزيد الاول سنة ١٣٨٩ (٧٩٢) ففتح مدينة فيلادلفيا وهي آخر مدينة بقيت للروم في اسيا الصغرى واستولى على جانب كبير من ولاية قرمان وعلى امارة قسطموني فآلت كل بلاد السلاجقة الى آل عثمان . ثم عاد الى اوروبا فدوَّخ البلغار وجانبًا من السرب ومكدونيا وتساليا وضواحي الطونه ودخلت جنوده بلاد الفلاخ والمجر وانتصر على جيش سجسموند المجري ومحالفيه الافرنج انتصارًا باهرًا سنة ١٣٩٦ وحاصر القسطنطينية

عشر سنوات وصمَّم على اخذها . ولكن لما بلغهُ قدوم تيمورلنك المغولي الى اسيا الصغرى بقصد اجتياحها رفع الحصار عن القسطنطينية وقفل راجعاً ليدفع عن بلاده فالتقى بتيمورلنك عندمدينة انقرة سنة ١٤٠٢ (٨٠٤) والتحم بين الفريقين قتال هائل كانت الغلبة فيه ليتمورلنك فبدد جموع الاتراك وأثخن فيهم قتلاً وجرحاً وقبض على السلطان بايزيد وسجنه في قفص من حديد حيث توفي سنة ١٤٠٣ (٨٠٥) . وكان تيمورلنك قد صمَّم على افتتاح القسطنطينية والاستيلاء على الممالك الرومية ولكن لما تعسَّر عليه عبور البوغاز لعدم وجود السفن ترك البلاد ورجع الى بلاده بعد ان افتتح الديار الشامية واكثر الممالك الشرقية

٥ — محمد الاول . وبعد وفاة بايزيد وقع الخلاف والشقاق بين اولاده ودام ذلك نحو احدى عشرة سنة الى ان انفرد بالسلطنة السلطان محمد الاول (سنة ١٤٠٢) اصغر اولاد بايزيد . وكانت البلغار والسرب والفلاخ قد اغتنمت فرصة هذا الخلاف وما ثار بسببه من المنازعات العنيفة فاستقلَّت فصرف السلطان محمد همهُ الى اصلاح المملكة وتأييد شوكتها وازالة كل اضطراب منها وقد حالف امبراطور القسطنطينية وردَّ اليه كثيراً من الاماكن في مكدونيا وتساليا

٦ — مراد الثاني . وملك بعد احمد الاول ابنه السلطان مراد الثاني سنة ١٤٢١ (٨٢٤) فاستولى على جميع القلاع والحصون الباقية تحت تصرُّف الروم على شواطئ البحر الاسود وسواحل الروملّي . ونشبت بينه وبين ملك بولونيا حرب اشترك فيها البولونيون والفلاخيون والمجريون وغيرهم

وقد تغلّبت هذه الامم المتحدة على جنود الاتراك في نيش . وعقد ملك المجر هدنة مع السلطان الى مدة عشر سنوات اخذت المجر بموجبها الفلاخ وبقيت البلغار للاتراك ورُدَّت السرب الى ملكها جورج براكوفيك وجُعل الدانوب حدًّا فاصلاً بين تركيا والمجر. غير ان المجريين لم يلبثوا ان نقضوا هذه الهدنة فحاربهم السلطان مراد وفاز عليهم فوزًا مبينًا في واقعة وارنة سنة ١٤٤٤ وقتل ملكهم . ثم اغار على بلاد اليونان ففتحها عنوة واسر من اهلها ستين الفًا

٧ — محمد الثاني . وأفضى الامر بعده الى ابنه السلطان محمد الثاني الفاتح سنة ١٤٥١ (٨٥٥) . ففتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ (٨٥٧) وبذلك استولى على البقية الباقية من المملكة البزنطية . واليها نقل عرش السلطنة العثمانية . وانشأ للدولة اسطولاً كامل العدة والذخيرة. وحارب البنادقة والقرمانيين والفلاخيين . واستولى على المورة وطرابزون وبلاد الارناؤوط باسرها. وكان ذلك بين سنة ١٤٥٦ وسنة ١٤٦٢. وسنة ١٤٧٥ استولى على شبه جزيرة القريم وعلى بعض جزائر البحر . وخفق العلَم العثماني في ايطاليا على قلعة اترنتو

٨ — بايزيد الثاني . وبعد وفاة محمد الفاتح قام باعباء الملك ابنه بايزيد الثاني سنة ١٤٨١ (٨٨٦) فاغار على الديار المصرية لاستخلاصها من ايدي المماليك ولكنهُ لم يفلح فقفل راجعًا الى بلاده وانشأ اسطولاً قويًا نازل أسطول البنادقة وتغلب عليه . وكان هذا السلطان محبًّا للسلم غير ميال الى الفتوح فلم يضف الى الدولة املاكًا جديدة. فتمرَّد عليه بسبب ذلك

لانكشارية واضطروه ان يتنازل عن الملك لابنه سليم فتنازل وتوفي بعد ايام قليلة (سنة ٩١٨ هـ)

٩ — سليم الاول · ولما افضت نوبة الملك الى السلطان سليم الاول سنة ١٥١٢ (٩١٨) زحف سنة ١٥١٤ على بلاد العجم واستولى على كردستان وديار بكر · ثم حارب المماليك واستولى على سوريا ومصر وبلاد العرب سنة ١٥١٧ وبذلك انتقل مسند الخلافة الاسلامية من آخِر خلفاء العباسيين (المتوكل على الله) الذي كان مقيماً في القاهرة الى السلطان سليم والى خلفائِه من بعده وكان السلطان سليم اول مَن لُقِّب من سلاطين آل عثمان بخادم الحرمين الشريفين وخليفة الاسلام

١٠ — سليمان الاول · وبعد سليم الاول افضى الملك الى ابنه السلطان سليمان سنة ١٥٢٠ (٩٢٦) ويُعرَف بالقانوني لانه وضع قوانين كثيرة · وفي ايامه بلغت الدولة العثمانية اعظم مبلغ من الصولة والمنعة والاتساع · ففي سنة ١٥٢٢ استولى على جزيرة رودس · وسنة ١٥٢٦ زحف بجيش جرار يبلغ عدده ٣٠٠ الف مقاتل الى بلاد المجر فافتتح مدينة بلغراد وهي أحصن وأمنع قلاع الطونه وكسر الملك لودوفيك الثاني المجري واستولى على بلاده وبقيت هذه البلاد مقاطعةً عثمانيةً قرناً ونصف القرن · وفي سنة ١٥٢٩ حاصر مدينة فينا عاصمة النمسا وضرب عليها الجزية · وسنة ١٥٣٢ حارب السرب واستولى على اكثر حدود النمسا · وسنة ١٥٣٤ زحف الى بلاد العجم فافتتح تبريز وبغداد · وسنة ١٥٣٨ استولت العمارة البحرية العثمانية بقيادة خير الدين باشا (المشهور عند الافرنج باسم برباروس)

وطورغوت باشا على عدة جزائر لجمهورية فينيسيا في الارخبيل الرومي . ثم اجتازت هذه العمارة جميع شطوط البحر المتوسط الى اسبانيا وألقت الرعب في اكثر الممالك المجاورة وطردت الاسبانيين من ممالك البربر واستولت على تونس والجزائر وطرابلس الغرب وأصبحت الدولة العثمانية في عهد هذا السلطان العظيم ممتدة من بودابشت على نهر الطونه (الدانوب) الى اصوان عند شلالات النيل ومن نهر الفرات الى بوغاز جبل طارق

١١ — سليم الثاني . بعد وفاة السلطان سليمان خلفهُ على المملكة ابنه السلطان سليم الثاني سنة ١٥٦٦ (٩٧٤) وفي زمانه حدثت حرب بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية واستولت الدولة على جزيرة قبرس . وفي سنة ١٥٧١ انتصر الدون جوان الاوستري على الاتراك انتصاراً عظيماً في الموقعة البحرية المشهورة التي حدثت عند ليبانتو

١٢ — مراد الثالث . تولى زمام الدولة بعد وفاة ابيه سنة ١٥٧٤ (٩٨٢) وكانت مدة ولايته ٢١ سنة لم يجرِ فيها الا حرب بين الدولة والعجم امتدت اثنتي عشرة سنة دون فائدة تذكر سوى اهراق الدماء الغزيرة

١٣ — محمد الثالث . وبعد مراد الثالث قام باعباء الدولة ابنه السلطان محمد الثالث سنة ١٥٩٥ (١٠٠٣) وفي ايامه شقت الفلاخ عصا الطاعة للدولة واستولت على ضفاف الطونه . وفي سنة ١٥٩٦ نشبت حرب بين العثمانيين من جهة والمجريين والنمساويين واهالي الفلاخ والبغدان من جهة اخرى وقد انتصر المتحالفون في بادئ الامر على الجيش العثماني ولكنهم لم يلبثوا ان دُحروا وقُتل منهم خلق كثير . غير ان الفتن والمشاكل الداخلية

التي حدثت وقتئذٍ في بلاد الاناضول اضعفت شوكة الدولة ومهّدت للاعداء الفرص فاغتنموها واستولوا على بعض المقاطعات

١٤— احمد الاول. تبوأ كرسي الخلافة بعد ابيه محمد الثالث سنة ١٦٠٣ (١٠١٢) . وفي زمانه نشبت حرب بين الدولة وايران لم يكن من نتائجها سوى تفاقم الفِتن والاضطراب في البلاد . ثم شبت حرب اخرى بين الدولة والمانيا كانت نتيجتها إبطال دفع الغرامة التي كانت النمسا تؤدّيها سنوياً للدولة . وأن يُقام سفراء من الطرفين في عاصمة كلٍّ من الدولتين. وأن تكون كتابات السلطان الى الامبراطور حاوية شعائر المودة والاعتبار المتبادَل ككتابة الاخ الى اخيه او نظيره . وجرت هذه العادة من ذلك اليوم. ثم عُقدت مثل هذه العهود مع دولة فرنسا . وكان ذلك سنة ١٦٠٦

١٥— مصطفى الاول. كان السلطان احمد الاول قد اوصى قبل وفاته بالملك من بعده لاخيه مصطفى لان ولده عثمان كان قاصراً . وهذه هي المرة الاولى التي خَلَف فيها سلطان اخاه . ومذ ذلك الوقت صار حق الخلافة لاكبر وأرشد رجال الاسرة المالكة . بُويع السلطان مصطفى الاول سنة ١٦١٧ (١٠٢٦) فاقام على عرش السلطنة ثلاثة اشهر وبضعة ايام ثم خُلع وجلس في مكانهِ ابن اخيه

١٦— عثمان الثاني. تولى سنة ١٦١٨ (١٠٢٧) وفي ايامه فازت الدولة بالنصر على ايران . ونشبت بينها وبين بولونيا حرب شديدة كان الفوز فيها لبولونيا (سنة ١٦٢١) وعلى اثر ذلك تفاقمت الفتن والخطوب وأفضى اخيراً الى قتل السلطان عثمان واعادة مصطفى

مصطفى الاول (ثانية) — تولى سنة ١٦٢٢ (١٠٣١) فلما بلغ الايرانيين قتل عثمان واعادة مصطفى وضعوا ايديهم على اكثر البلاد التي فتحها السلطان سليم . وقام نواب الدولة في الاناضول وسوريا ومصر وجاهروا بالعصيان . فلما علم مصطفى بذلك خلع نفسه وبُويع بالخلافة مكانه مراد (الرابع) ابن احمد الاول

١٧ — مراد الرابع . تبوأ سرير الملك سنة ١٦٢٣ (١٠٣٢) وعمره خمس عشرة سنة وكانت الفتن والقلاقل منتشرة في كل مكان فاغتنم الايرانيون هذه الفرصة واستولوا على بغداد وتقدموا الى الموصل واخذ خانات التتر في جهات القريم يتعدون على حدود الدولة . فزحف السلطان سنة ١٦٣٨ بثلاثمئة الف مقاتل الى ايران وافتتح مدينة بغداد عنوةً بعد ان قُتل من الايرانيين نحو عشرين الفًا ومن العثمانيين نحو مئة الف . ولما توفي مراد خلفه اخوه السلطان ابرهيم

١٨ — ابرهيم الاول . وَليَ الملك سنة ١٦٤٠ (١٠٤٩) وفي زمانه استولت الدولة على مدينة ازوف (سنة ١٦٤٣) وعلى جزيرة كريت . ثم مات مقتولاً

١٩ — محمد الرابع . خلف اباه (ابرهيم الاول) على سرير الملك سنة ١٦٤٨ (١٠٥٨) وعمره سبع سنين وكانت الدولة في ارتباك عظيم والمشاغب منتشرة في اكثر جهاتها . وفي سنة ١٦٦٤ نشبت حرب بين الدولة والنمسا انتصرت فيها الثانية . ومن سنة ١٦٦٨ الى ١٦٧٠ استولت الدولة على جزيرة كريت كلها بعد حرب شديدة بينها وبين مشيخة البندقية .

وفي سنة ١٦٧٣ و١٦٧٥ انتصر سوبياسكي ملك بولونيا على العثمانيين انتصاراً كبيراً وشتّت جموعهم عند خوتين ولمبرغ . وسنة ١٦٧٨ ثارت حرب بين الدولة وروسيا فازت فيها الثانية . وسنة ١٦٨٣ حاصر العثمانيون مدينة فينا فكُسروا كسرة هائلة وخسروا جميع بلاد المجر سنة ١٦٨٦

٢٠— سليمان الثاني · بويع بالخلافة مكان اخيه محمد الرابع سنة ١٦٨٧ (١٠٩٩) وبعد سنتين من جلوسهِ اضطرمت نار الحرب بين الدولة والنمسا كانت العاقبة فيها للنمسا غير ان الدولة لم تلبث ان انتصرت عليها سنة ١٦٩٠ و١٦٩١ واستردَّت منها بلغراد واماكن اخرى وفازت ايضًا الدولة وقتئذٍ في حربها مع البندقية

٢١— احمد الثاني · افضت نوبة الملك اليه بعد وفاة اخيه سليمان الثاني سنة ١٦٩١ (١١٠٢) . وفي ايامهِ تجددت الحرب بين الدولة والنمسا ثم بينها وبين البندقيين واستولى هوءلاء على جزيرة ساقس من جزائر بحر سفيد

٢٢— مصطفى الثاني · هو ابن السلطان محمد الرابع . تولى زمام الدولة بعد وفاة احمد الثاني سنة ١٦٩٥ (١١٠٦) وفي عهده عادت جزيرة ساقس الى حوزة الدولة (سنة ١٦٩٥) . وفي سنة ١٦٩٧ استعرت الحرب من جديد بين الدولة والنمسا خسرت الدولة فيها الخسائر الفادحة

٢٣— احمد الثالث · هو اخو محمد الرابع تبوأ عرش السلطنة سنة ١٧٠٣ (١١١٥) وبعد ثماني سنين من ملكه اشهرت الدولة الحرب على روسيا واستولت على بحر ازوف . ثم اشهرت حربًا على البندقية (سنة ١٧١٤) واستولت على ولاية المورة سنة ١٧٥١ . ثم اضطرمت الحرب بين الدولة والمانيا فخسرت الدولة

بلغراد وغيرها من المدن والمقاطعات على ضفاف الطونة . وفي اواخر سلطنتهِ ظهرت حرب ايران ولما كانت هذه الحرب قد احدثت اضطرابًا في العاصمة دُعي الى مقام السلطنة ابن اخيه السلطان محمود الاول

٢٤– محمود الاول . وَليَ الملك سنة ١٧٣٠ (١١٤٣) وحارب روسيا والمانيا عدة سنوات فعادت بلغراد مع اقليمي السرب والفلاخ الى الدولة وجُعل نهر الدانوب حداً فاصلاً بينها وبين المانيا

٢٥– عثمان الثالث . خلف اخاه محمود الاول سنة ١٧٥٤ (١١٦٨) وامتدَّ ملكه ثلاث سنوات لم يقع في خلالها واقعة حربية قط

٢٦– مصطفى الثالث . هو ابن السلطان احمد الثالث . أفضى الملك اليه سنة ١٧٥٧ (١١٧١) . وفي ايامه التظت نار الحرب بين الدولة وروسيا (سنة ١٧٦٩ – ١٧٧٠) وكان من عاقبتها ان الدولة خسرت شوكزيم والبغدان وقسمًا من الفلاخ وعدة جزائِر من الارخبيل واحترق الاسطول العثماني بالقرب من جزيرة ساقس . وفي الوقت نفسه انتقض اليونان على الدولة بدسيسة روسيا واخذوا يستعدون لمنابذتها وخلع الطاعة لها . ونهض ايضًا علي بك من المماليك واخذ مصر واراد الاستقلال بها . وحكم ايضًا الشيخ ظاهر العمر على جانب من سوريا مستقلاً . فأمست الدولة في مركز حرج جداً

٢٧– عبد الحميد الاول . وبعد مصطفى الثالث افضى الملك الى اخيه عبد الحميد الاول سنة ١٧٧٣ (١١٨٧) وفي عهده نشبت الحرب بين الدولة وروسيا وكانت العاقبة ايضًا لروسيا فاستولت على شبه جزيرة القريم وكرجستان وجركستان والفلاخ والبغدان

٢٨— سليم الثالث· هو ابن السلطان مصطفى الثالث . رقي سرير الملك سنة ١٧٨٩ (١٢٠٣) وكانت الحرب السابق ذكرها قائمة بين الدولة وروسيا . وفي سنة ١٧٩٨ دخل الفرنسويون بلاد مصر واقاموا فيها الى سنة ١٨٠٠ . وفي سنة ١٧٩٩ اتحدت العمارتان العثمانية والروسية واستولتا على الجزائر السبع اليونانية التي كانت في حوزة جمهورية فرنسا منذ سنة ١٧٩٧

٢٩— مصطفى الرابع· جلس على عرش الخلافة سنة ١٨٠٧ (١٢٢٢) بعد انسحاب ابن عمه السلطان سليم الثالث . ولكنه لم يبقَ على العرش الاَّ سنة واحدة

٣٠— محمود الثاني· هو ابن عبد الحميد الاول . تولى زمام الاحكام سنة ١٨٠٨ (١٢٢٢). وفي ايامه استقلت اليونان بمساعدة روسيا وانكلترا وفرنسا (سنة ١٨٢٨) . وعلى اثرها تلظَّت الحرب بين الدولة وروسيا فاجتازت الجيوش الروسية جبال البلقان . وفي سنة ١٨٢٩ تمَّ الصلح بين الدولتين في مدينة ادرنة فاستولت روسيا على بسارابيا واستقلَّت السرب استقلالاً اداريًا وخسرت الدولة ما بقي في حوزتها من بلاد الكرج . وفي سنة ١٨٣٠ دخل الفرنساويون بلاد الجزائر (وتمَّ استيلاؤهم عليها سنة ١٨٤٧) . وسنة ١٨٣١ زحف ابرهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر الى سوريا بثلاثين الف مقاتل فاستولى عليها وبقيت في حوزته تسع سنين. وفي تضاعيف هذه الحروب اباد السلطان محمود وجاق الانكشارية ونظم جيشًا جديداً على الطرز الاوروبي

٣١— السلطان عبد المجيد· جلس على سرير الملك بعد وفاة والده السلطان

محمود الثاني سنة ١٨٣٩ (١٢٥٥) وفي عهده صارت مصر ايالةً ممتازة على أن تدفع للدولة خراجاً سنوياً . وانتشبت حرب القريم المشهورة (سنة ١٨٥٤ — ١٨٥٥) بين الدولة وروسيا. وكانت انكلترا وفرنسا وسردينيا قد حالفت الدولة وسيرت جيوشها واساطيلها لمشاركتها في حرب الروس. فحاصرت هذه الدول المتحالفة مدينة سباستوبول واخذتها بعد ان اقامت على حصارها نحو احد عشر شهراً . وعُقد بعد ذلك موءتمر باريس (سنة ١٨٥٦) فتقرَّر فيه ابقآء الاملاك العثمانية سليمة . وفي تلك السنة صدر الخط الهمايوني آمراً بالحرية والمساواة امام القانون واعفآء النصارى من اداء الجزية وان يُوخذ منهم عسكر وان يكون لهم وكلآء في الادارات . غير ان النصارى انفسهم استفدحوا وقتئذٍ الخدمة العسكرية وآثروا تأدية البدل العسكري

٣٢— السلطان عبد العزيز. هو ابن السلطان محمود الثاني تبوأ عرش السلطنة سنة ١٨٦١ (١٢٧٧) وفي ايامه اتقدت نيران الثورة وتفاقمت الفتن والاضطرابات في كثير من اطراف المملكة . وفي ٣٠ ايار سنة ١٨٧٦ خُلع السلطان عبد العزيز وتوفي بعد ذلك بخمسة ايام

٣٣ — السلطان مراد الخامس. هو ابن السلطان عبد المجيد تولى بعد خلع السلطان عبد العزيز ولبث على السدة الملوكية الى ٣١ آب سنة ١٨٧٦ (١٢٩٣) وقد خُلع ايضاً لعلَّة طرأت عليه

٣٤— السلطان عبد الحميد الثاني. هو ابن السلطان عبد المجيد. تولى بعد خلع اخيه السلطان مراد في اول ايلول سنة ١٨٧٦ (١٢٩٣) . وفي ٢٣ كانون

الاول من السنة المذكورة أعلن الدستور لاول مرة بمساعي مدحت باشا واجتمع مجلس النواب . غير ان السلطان لم يلبث ان حلّه (في ٥ شباط سنة ١٨٧٧) وألغى الدستور الذي كان يَعد به قبل جلوسه على العرش . وفي ٢٤ نيسان سنة ١٨٧٧ أعلنت روسيا حربها الاخيرة على تركيا ودامت هذه الحرب الى ٣ اذار سنة ١٨٧٨ . وكان من عاقبتها ان روسيا اخذت القارص وباطوم واردهان (من ارمينيا) . واستقلت السرب ورومانيا والجبل الاسود . واحتلت النمسا البوسنه والهرسك . واستقلت بلغاريا استقلالاً ادارياً وأُلحقت بها الروملّي الشرقية . واستولت اليونان على تساليا وبيرا . واحتلت انكلترا قبرس بموجب معاهدة خصوصية (سنة ١٨٧٨) وبلاد مصر (سنة ١٨٨٢) واستولت فرنسا على تونس (سنة ١٨٨١) واستقلت كريت تحت سيادة الدولة واخذت المانيا امتياز سكة بغداد الحديدية فملكت ارضًا توازي مساحة ثلاث ممالك اوروبيَّة . وعلى هذه الصورة فقدت الدولة في هذه الحرب بلاداً كثيرة ولم يبقَ لها من املاكها في اوروبا الاَّ بلاد البانيا وضواحي الاستانة وولاية سلانيك وبلاد مكدونيا (وهذه البلاد كانت تُسمى قديمًا ثراكيا ومكدونيا وابيرِ وايلّيريا) . وسنة ١٨٩٧ نشبت الحرب بين الدولة واليونان فغلبت الدولة ولكنها لم تجنِ من هذه الحرب فائدة تُذكر . وفي زمان عبد الحميد الثاني تعدَّدت الثورات في ارمينيا ومكدونيا وسلانيك ومناستير وادرنة وتفاقمت الخطوب في المملكة كلها حتى تضعضعت دعائمها ووهت سطوتها فاضطرَّ السلطان الى اعلان الدستور ثانيةً في ٢٤ تموز سنة ١٩٠٨ ولكنه

لم يلبث ان طفق يكيد له حبّ الغائِهِ . وفي شهر نيسان من سنة ١٩٠٩ انتشبت في الاستانة ثورة هائِلة كادت تقوّض اركان الدولة وتحلّ عراها(١) فتلافى رجال الدولة الامر وخلعوا السلطان عبد الحميد (في ٢٧ نيسان سنة ١٩٠٩ = ١٣٢٧) وبايعوا اخاه السلطان محمد رشاد



٣٥ — جلالة السلطان محمد رشاد الخامس

هو السلطان الخامس والثلاثون من آل عثمان والتاسع والعشرون منذ استيلاء العثمانيين على القسطنطينية . وُلد في ٣ تشرين الثاني سنة ١٨٤٤ (٢١ شوال سنة ١٢٠٦) وتولّى عرش السلطنة العثمانية والخلافة الاسلامية في ١٤ و٢٧ نيسان سنة ١٩٠٩ (٦ ربيع الآخر سنة ١٣٢٧)

١) انظر تفاصيل الانقلاب العثماني في مجلد السنة الاولى من هذه المجلة

وهو تقي صالح طيب السريرة صادق اللهجة نحو الجميع لم تتغيّر هذه الخلال فيه منذ نعومة اظفاره وفيه نزوع الى الحرية الشخصية والحكومة الدستورية وقد كان في مقدمة الفرحين باعلان الدستور . ولجلالته اربعة اولاد وهم : ضيآء الدين افندي (وُلد سنة ١٨٧٧) ونجم الدين افندي (١٨٨١) وعمر حلمي افندي (١٨٨٣) ورفيعة سلطانة (١٨٨٧) . اما ولي عهد السلطنة فهو البرنس يوسف عز الدين افندي نجل السلطان عبد العزيز (وُلد سنة ١٨٥٧) نسأل الله ان يحفظ حياة جلالة مولانا السلطان محمد رشاد باليمن والاقبال ويعزّز شوكته بالنصر المبين

انباء مختلفة

﴿ الحرب بين الدولة العلية وايطاليا ﴾ — في ٢٨ ايلول الماضي اعلنت ايطاليا الحرب على الدولة العثمانية وساقت اسطولها الى مياه طرابلس الغرب واحتلت بعض شواطئها وهي تنوي احتلال هذه الولاية الكبيرة ظلماً واعتداء

ان عمل ايطاليا هذا وخرقها للحقوق الدولية والنظامات المرعية في كل الانحآء قد أسآء العالَم المتمدن أجمع وقامت جميع الصحف تذم عملها وتنتقد خطتها

تلقت الحكومة العثمانية هذا النبأ بما يقتضيه من ثبات الجأش والرزانة وبادرت في الحال الى اتخاذ جميع التدابير والوسائل التي تدرأ عن البلاد كل كارثة وتصون شرف الوطن ومجد الامة

وما كاد ينتشر نبأ هذه الحرب حتى اهتزت اعصاب عموم العثمانيين على اختلاف الملل والنحل وهبّوا لنصرة الدولة والذود عن الوطن بالنفوس والاموال

ان المملكة العثمانية هي اكثر البلاد تعرُّضاً لمطامع الاجانب كما يشهد بذلك

تاريخها غير ان الامة العثمانية بعد الدستور تختلف عنها قبله. فهي اليوم تشعر شعوراً واحداً بكل حيف يُلمُّ بها وهي اليوم تتفانى في الذبّ عن حياض الوطن العزيز ومستعدة ان تسفك دمها لتعزيز الراية العثمانية المقدسة

هذه الامة التي ظهر فيها امثال محمد الفاتح وسليم الاول وسليمان القانوني العظيم تستطيع ان تدافع عن كيانها وتردّ طمع الطامعين وكيد الظالمين

﴿ مساحة الدولة العثمانية وعدد سكانها ﴾ مساحة الدولة العثمانية في الوقت الحاضر ٢٩٨٧١١٧ كيلومتراً مربعاً. وهي تساوي مساحة فرنسا وايطاليا والمانيا واوستريا والمجر واسوج ونروج ورومانيا وبلغاريا وبلجكا مجموعة

اما عدد سكانها فخمسة وعشرون مليون نفس. منهم ستة ملايين ونصف المليون في اوروبا و١٧ مليوناً ونصف في اسيا ومليون في طرابلس الغرب (افريقيا)

﴿ طرابلس الغرب ﴾ هي احدى ولايات الدولة العثمانية واقعة في الجهة الشمالية من افريقيا . حدودها من الشمال البحر المتوسط ومن الشرق الصحراء ومصر ومن الجنوب الصحراء ومن الغرب الصحراء وتونس . مساحتها ١٠٥١٠٠٠ كيلومتر مربع وعدد سكانها مليون نفس وهم خليط من البربر والعرب والترك والاوروبيين . استولت عليها الدولة العثمانية سنة ١٥٥١ على يد الاميرال الشهير طورغوت باشا . ثم استقلّت في القرن الثامن عشر وحكمها المدعو احمد القرمانلي وذووه الى سنة ١٨٣٠ ولم تلبث الدولة العلية بعد ذلك بسنوات قليلة ان عادت فاستولت عليها وجعلتها واحدة من ولاياتها

والقسم الجنوبي من هذه الولاية عبارة عن فياف قاحلة لا ماء فيها. وسكان هذا القسم من السنوسيين وهم من اشجع العربان واشدّهم مراساً

﴿ آثار ادبية ﴾ — جادة الرشاد — وردنا العددان الاولان من جريدة بهذا العنوان تصدر في حمص لاصحابها الافاضل حنا افندي خباز واولاده وفيها من المقالات الشائقة والنبذ المفيدة ما يضمن لها النجاح والانتشار. وقيمة اشتراكها ١٠ فرنكات في سوريا ونصف ليرة انكليزية في الخارج